الفلسفة الماركسية في بردتها الاصلية

قلم الياس صقر †

عرف البشر لبضع سنوات خلت ، فضلاً عن النظام الديموقراطي النظامين الفاشي — النازي والشيوعي ولم يكونوا ليألفوهما في الماضي الا في ظروف استثنائية — اما اليوم بعد ان قضت الحرب الاخيرة على الفاشية النازية فلم يبق قائماً غير النظامين الديموقراطي والشيوعي .

ومن المعلوم ان الديموقراطية تستند في قيامها الى مبادئ حقوق الانسان : الحرية والاخاء والمساواة حيال القانونين المدني والجزائي . اما الشيوعية فتقوم دعائمها على تعاليم كارل ماركس الفلسفية والاقتصادية .

ولا شك في ان الانظمة المعمول بها لم توضع في حيز التنفيذ الواقعي الا بعد ان مرّت بمراحل نظرية عدة كانت بمثابة نقطة انطلاق لها فلذلك من المستحيل فهم تعليم كارل ماركس فهماً صحيحاً ما لم نعرف تعريفاً واضحاً الناحية العملية التي انحاز اليها ونظرية التطور التاريخية التي اعتنقها ودان بها .

ولم يصل هذا العالم الى وضع اسس عملية لتعاليمه الا بعد ان تقلب تقلبات شتى افضت الى نضوجه فمنذ درس علم « الموجبات السياسية » والخبز وضع فلسفة المستقبل ونشر كتابيه « الاسرة المقدسة » سنة ١٨٤٤ و«نظرية فورباخ» سنة ١٨٤٥ .

ولا يغيب عمن يدرس مؤلفات ماركس انه كان في كتابة «الاسرة المقدسة» غير ذلك الطالب الذي كان يرى في استاذه هيكل Hegel المثل الاعلى له ليحله في المكان الارفع .

اجل بعد ان كان ماركس من اشد انصار الفيلسوف المثالي هيكل اعتنق تعاليم فورباخ واتخذها نبراساً له في بحوثه الفلسفية النظرية وقال في صدد ذلك « لقد اكمل فورباخ نظرية هيكل وبحث الانسان الصحيح ابن الطبيعة».

(المنتخبات ص ١٤٨)

وبعد ان درس ثورة عام ٨٩ وملابساتها والعوامل التي كانت سبباً في اضرام لهيبها وضع كتابه « بؤس الفلسفة » ردًّا على الفيلسوف الفرنسي برودهون .

المفهوم التاريخي الماركسي

من كنت الى ماركس

قبل العهد المسيحي كان الفلاسفة الوثنيون يجهلون تاريخ الانسانية العام وكانوا اذا ارادوا تدوين تاريخ امة غير التي ينتمون اليها يشحنونه بشتى الخرافات والاساطير الوهمية فلذلك لم تكن معلوماتهم في هذا الباب غير معلومات سطحية لا يؤبه لها ولاسيما اذا لم تتناول تاريخ القومية التي ينتمون اليها .

اما المسيحية فوحدت بتعاليمها المفهوم التاريخي وجعلته انسانياً عاماً وذلك بعد ان عرفت قضية خلق الانسان وتكوينه ومصيره بعد مماته .

والدين الاسلامي عرف ايضاً وحدة اصل البشر « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » — « ان الله قد اذهب بالاسلام نخوة الجاهلية وتفاخرهم بآبائهم لان الناس من آدم وآدم من تراب واكرمهم عند الله اتقاهم » .

ولئن عرفت التعاليم المسيحية وحدة اصل البشر ولم تخص بها فئة معينة من الناس فانها قد اوجدت بذلك المفهوم التاريخي الصحيح اما في القرن الثامن عشر فظهرت بوادر فلسفة جديدة حصرت كل همها بان تبعد هذا المفهوم عن التعاليم المسيحية .

وتعرض روسو في كلمته على : عدم المساواة بين البشر لهذا الامر وجاراه في ذلك كنت الذي قال في هذا الشأن : « في سبيل تشييد هيئة انسانية جديدة سنادها العقل الناضج كل التضرج لا بد للبشر من بذل مجهودات جبارة مستمرة يشترك فيها معهم ابناؤهم وحفدتهم . »

وقال في مكان آخر : « الانسان حر ان يعمل ما يريد فان كان عمله مقيداً بالداعي الادبي الذي يفرض الواجبات فانه قد فعل ما يجب عليه فعله لان العقل لا يأمر بالمستحيل — لا يتاح للبشر الارتقاء في معارج مصيرهم المقرر الا بواسطة

مجهودات مستمرة يبذلونها . اما اذا اتفق لهم ان توقفوا عن اطراد سيرهم هذا فان ما خطوه الى الامام لن يعود بكامله الى الورا. . . .

وقد كان اشد صراحة من ذلك في قوله : « مفروض في الطبيعة الانسانية العاقلة استمرار تقدمها في معارج كالها فذلك كل سرّ تطورها فهي لا تخضع لسنة التحول والتبدل على عكس التاريخ الانساني الذي انجز مجتمعه انجازاً تدريجيًا فكان ذلك من اخص خصائصه . . .

والخلاصة اراد كنت ان يقول « ليست الطبيعة الانسانية واقعاً تاريخيًا وانما الواقع التاريخي هو كل امر ممكن اقامه :

« Anthropologie in pragmatischer Hinsicht »

ومن اقوال فورباخ ان الانسان هو الذي ابتدع الهه ولم يكشف فيه الا صورة نفسه واذا ما اطلق عليه بعض الصفات فليست الا صفاته . فلا وجود لغير الانسان على الارض ولغير عمله . اما ميزته الطبيعية التاريخية فمشتركة بين عموم البشر ولا تني عن اطراد سيرها الى الامام بشعورها الذاتي .

واذا كان فورباخ قد نبذ فكرة وجود الاله وجحد بها جحوداً كاملاً فانه لم يقل بتحول طبيعة الانسان ولا بتطورها بل خصها بشعور ذاتي فقط جعله ميزتها التاريخية .

ميزة الانسان التاريخية في نظر ماركس

لا ريب في ان ماركس تبنى في البدء تعاليم فورباخ وهيكل ومن ثم نقضها برمتها اذ جعل الانسان واقعاً تاريخيًا راهناً مبدؤه الارض ونهايته فيها وهو ليس في عرفه الا شخصاً تاريخيًا فقط . ولقد ارتكب فورباخ اشد ضروب الضلال في نكرانه الخالق فناقض نفسه بنفسه اذ قال : « يكن البشر في صدورهم وجداناً مشتركاً » لان قوله هذا يستوجب حتماً فرض وجود خالق ليسن لهم القواعد الاخلاقية ويعين لهم الغاية منها ومن وجودها .

وزعم ماركس ان الافكار القائمة في رؤوس البشر والوجدان المكنون في قرارة انفسهم وايانهم بوجود خالق ليست الا اوهاماً ابتدعتها مخيلاتهم لا تقابلها حقيقة من حقائق الوجود الانساني الطبيعي ولا من الوقائع التاريخية الراهنة

فيجب ان تتبخر لتندثر من امام نور الامور الراهنة المحسوسة .

لقد كان ماركس اشد تعصباً في هذه الناحية من فورباخ الذي تخيّل وجود الانسان وليد شروط واوضاع حيوية مقرّرة افرغته في القالب الذي تراه فيه ليخضع لسنة التحول والتغير كلما تبدلت شروطه المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالتقلب التاريخي وبتطور المجتمعات الانسانية تطوراً مستمراً .

ففي عرف كنت الانسان مخلوق عاقل يسعى بل. ارادته الى بلوغ درجة الكمال . ومن رأي فورباخ ان الانسان كان خالقاً في البدء وبفضل استمرار وعيه الذاتي هدّم الالوهية . اما ماركس فنظر الى البشر كمخلوقات يستحيل تجريدهم من وضعهم الاجتماعي الراهن حتى اذا لم نأخذ بعين الاعتبار شروطهم هذه استحال علينا ادراك ماهيتها .

ولا سبيل للشك في ان تصوراً على هذه الشاكلة لذو نتائج خطيرة جداً الخطورة اذ بالاستناد الى هذا الزعم لن تكون الافكار والوجدان والحقائق المطلقة والبديهيات نفسها الا تفسيراً للوضع الاجتماعي الحاضر اقتصر دورها على مماشاة الحركة الاجتماعية فقط لتشاركها في تبدلها وتغيرها ولو كان ذلك موقتاً .

وانصرف ماركس الى حصر مجهوداته بالبحث عن حياة المجتمع الراسمالي الراهنة وعن كيفية تطورها فقال: يهمنا قبل كل شيء معرفة تفسير الحقيقة الراهنة لا التلهي بالمباحثات اللاهوتية التي لا تجدي نفعاً كما يفعل « اليسار الهيكلي » فعلينا ان نفقه كيف تتطور الهيئة الاجتماعية لنستغني عن المفاهيم التي اوجدتها الاديان .

وما كاد ماركس ينحاز الى الناحية الاقتصادية حتى نال الهيئة الاجتماعية بنقده الحادّ اللاذع وجعل الاقتصاد السياسي علماً استمد قواعده ونواميسه من التطور التاريخي فانكبّ على درس نشأة الاقتصاد الراسمالي وكيفية تكوينه التي اعتبرها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالظروف الزمانية ولم تستند احكامه التي ادلى بها للتدليل على شوائب النظام الراسمالي الى مثل اسمى ولا الى القوانين الادبية وانما حصر اهتمامه بدرس ماهية الراسمالية والعوامل التي كان لها فعلها في تكوينها وتطورها ونموّها والمستقبل المظلم الذي ينتظرها لتندثر وتصبح اثراً بعد عين .

والذي يلفت النظر في دراسته معايب النظام الراسمالي الاسهاب الذي اسهبه في وصف الحياة الاقتصادية في غضون تطورات الآلة « التكنيك » لانها عنوان الانسان الحقيقي في سيطرته على الطبيعة فنمت التاجر الصغير والفارق في الحياة الاقتصادية القائمة بانها من خصوم التقدم الاقتصادي وقد عمما عن مزاياه الصناعية — ومن اقواله في هذا الباب : لا بدّ من ان يقضي « تطور ادوات الانتاج » يوماً على الاقتصاد الراسمالي ومن واجبنا الا نتغافل عن اهتبال هذه السانحة الثورية وان نكون على اهبة الاستعداد لها فبذلك نكون من الواعين المدركين لاننا نوقفنا الساعة التي تقض بها الالة على النظام الراسمالي وعرفنا كيف نستخدمها في سبيل ايجاد عالم جديد ، وليس ما تتحلى به من وعي في الواقع الا من نتائج التطور التاريخي .

وقصارى الكلام ان ماركس لم يجد قيد شعرة عن هيكل وانما عكس نظريته فاتخذ الاعمال الراهنة قاعدة لتاليه ومقياساً لاحكامه التي جاء فيها : لا بدّ يوماً ان يحلّ محل المجتمعات ذات الطبقات مجتمع شيوعي خالٍ من كل مثال روحي ، لان الشيوعية حدث يفرض نفسه فرضاً وهي ليست الا التطور الراهن الذي يلغي وضعنا القائم .

واردف معرفاً الشيوعية فقال : ان انسان المجتمع الجديد لن يكون له حاجة الى الاله وسوف يستغني بكل سهولة عنه لان الانسان ملحد بطبيعته وبعيد عن كل فكرة تربطه بالاله تلك الفكرة الملتوية التي قال بها فورباخ وباكوتين .

نظرية التطور الماركسية

استمدت ميزة الانسان التاريخية مبدأها « من نظرية التطور الحديثة » التي اوشكت ان تسيّر جميع العلوم تحت رايتها في غضون القرن التاسع عشر :

وملخص هذه النظرية : المادة الحام اصل كل حياة على الارض وحياة الانسان نفسها ليست الا وليدة تفاعلها الالي عبر الادهار السالفة . واذا كان النوع الانساني قد ارتقى في سلم النشوء اكثر من ارتقاء الحيوان الذي استمد منيته منه فذلك بسبب افعاله الاجتماعية ، وليست الفوارق التي تميزه عن الحيوان الا بنت بيئته الاجتماعية ، وما عقله الا نتاج حياته التي توالت فيها اعماله قروناً طويلة

وازمنة لا حصر لها. اما ما يتحلى به من معرفة يستطيع بواسطتها فهم أمور شتى نفسية وتاريخية فهما يكن مبلغ رقيها ومهما يكن لها من شأن لن تكون الا مادية، لان العقل هو الذي اوجد ذاته في كل فترة من الفترات. اما من يود البحث عن اصل « المعرفة لدى البشر وعن معلوماتهم عامة » ومن يرغب في التنقيب عن منشأ الفكر الانساني فذلك برهان لا يدحض على جهلها نتائج التطور الاجتماعي التي لم يسبب وجودها الا نشاط البشر التقدمي الاجتماعي.

ومن جملة اقواله في هذا الشأن: «يتميز الانسان عن الحيوان بوجدانه ودينه» وفي الواقع ان البشر لا يبدأون بتمييز انفسهم عن البهائم الا متى شرعوا بانتاج وسائل معيشتهم على « شرط » ان يساعدهم على ذلك تركيب جسومهم الطبيعي.

والظاهر ان ماركس لقد تجنب في قوله على « شرط » (bedingt) صعوبة جدية تناقض كل المناقضة نظريته التطورية وتدحضها.

والذين لم تقنعهم آراء ماركس يتساءلون اصحيح ان ما يقوم به الحيوان من اعمال وما يأتيه الانسان من افعال يخضعان لنظام تطور محتوم ام انهما يجريان وفقاً لنظام آخر؟

وهل يغيب عنا البون الشاسع القائم بين افعال الانسان الاجتماعية واعمال الحيوان الغريزية؟ ومما جاء من جملة اقواله في كتابه رأس المال: عمل الانسان ليس الا حلقة من سلسلة نمو دماغه الطويلة التي حول بواسطتها الطبيعة الحية به كما حول بواسطة شعوره الملازم لمأتيه طبيعته الخاصة فالانسان ابن المستقبل.

والذي ينعم الروية قليلا في اقواله هذه التي فلسف بها افعال الانسان الاجتماعية واعمال الحيوان الغريزية لا يستطيع ان يرى فيها غير ضرب من ضروب التلاعب بالكلام او تمويهاً كان القصد منه المخادعة لا خدمة الحقيقة.

ومن جملة ضروب الاختلاق التي اشار اليها بين عمل الحيوان الغريزي وافعال الانسان الاجتماعي ان من خصائص الثانية ان يسبقها تصميم فاعلها قبل شروعه بها مما يحمل على الاعتقاد ان العنكبوت والنحلة لا يسبق عملها تصميم — وربما تناسى ان الانسان لا تني ارادته عن السهر على افعاله لينجزها وفق الخطة التي رسمها لها. ونوع العمل في عرف ماركس ليس الا نتيجة تطور مستمر، بيد ان الحقيقة التي لا يأتيها الباطل تدحض كل الدحض زعمه هذا، لان الفرق بين شكل

عمـل الانسان والحيوان هو من حيث الكم ، على حين ان العمل الغريزي لن يرتقي ابدًا عما هو عليه . اما عمل ذي الوجدان فيطرد تحسنه دائمًا ولا ينفك عن مواصلة ارتقائه حتى يبلغ درجة الاتقان اي درجة العمل المنظم تنظيماً علمياً.

ولقد دلل الاختبار على ان العنكبوت كانت منذ البدء تنسج بيتها على وتيرة واحدة ولم تتقدم قطّ في صنعها. عما كانت عليه مما يبرهن على ان بين عملها وعمل الانسان هوة عظيمة تفصلها عنه .

ومهما عمق الباحثون قضية وجود الانسان العاقل ومهما قلبوها على وجوهها لن يرضيهم ابدًا الحل الماركسي لها. اجل لقد اخفق ماركس في المقام الذي قدّر لنفسه الفوز فيه .

التاريخ

عرّف هيكل Hegel التاريخ بقوله : انه تحقيق المفهوم العقلي بواسطة قواه نفسها ، اما ماركس فناقضه قائلًا : ليس هذا المفهوم الّا احدى نتائج تطور الحركة التاريخية .

واوضح تطور حركة التاريخ فقال : ان منشأها مردّه الى نضال الانسان ضد المادّة اذ لم يكن بمقدوره الاستغناء عن استغلال الطبيعة ليسد حاجاته الاساسية التي لا يستطيع الحياة بدونها ، فكان من جرّاء ذلك اضطرار البشر الى تنظيم علاقاتهم بعضهم ببعض في غضون نضالهم فنجم عن علاقاتهم هذه الفترات التاريخية التي اخذ بعضها برقاب بعض ، وانتقل الانسان من وضعه الاجتماعي الاول الى وضع جديد في مجتمع اشد تطورًا من الماضي ، وليس انصرافه الى التخصص باتقان اعماله وما تمايز طبقاته في الواقع الّا من جرّاء نضاله اولًا ضد المادة ، ولا شك في ان مجتمعاً جديدًا سينبثق من تطور الانتاج الانساني الجديد ولكنه سيكون مجتمعاً لا تفاوت بين طبقاته .

وهذه الآراء على ما فيها من حيرة لا تحملنا ابدًا على اكبار صاحبها لتضعه في عداد المبدعين وذلك اذا ما اخذنا بعين الاعتبار العوامل الكثيرة والمؤثرات العديدة وما كان من فعل وردات فعل في ترقي الانسانية وتطورها .

ولقد اعترف هذا الفيلسوف نفسه صراحة بقيمة العوامل والمؤثرات في تحويل

الاوضاع الاجتماعية حتى بات من المستحيل ان نتبيّن منها عاملاً مفرداً واحداً بالاستطاعة القول انه قد كان اساس فلسفته التاريخية. وذلك اذا ما صرفنا النظر عن مبدإ نضال الانسانية في سبيل الحفاظ على بقائها !

ومن الخطأ الذي ما بعده خطأ الاعتقاد ان هذا النضال الدائم « هو مجموع المؤثرات والعوامل برمتها » لان الاختبار اوضح لنا ان الانسان مضطر كل حين الى تأمين حاجاته الضرورية ولا سيما في بادئ امره فعلاقات البشر بعضهم ببعض المسببة عن الانتاج ليست الا صلاتهم الاجتماعية التي نشأت في احد عصور التاريخ منبثقة من ارتباط عمل الانسان الاول بالعالم المادي « الارض » .

ومما يغنينا عن التدليل على خطل هذه الآراء اعتراف صاحب كتاب راس المال نفسه في مستهل مؤلفه « نقد السياسة الاقتصادية » الذي جاء فيه : لقد كان تطور الانسان الحقيقي في البدء في ايجاد حياته الاجتماعية ايجاداً نجم عنه حكماً تنظيم علائقه تنظيماً قائماً على الانتاج فقط .

ولا سبيل للانكار ان البشر ليسوا احراراً في كل شأن من شؤونهم ولكنهم مثلوا وما برحوا يمثلون في فلسفة الانسان التاريخية دوراً لن يستطيع تمثيله غيرهم . وذلك لانهم يعيشون عيشة اجتماعية ويشتركون في مناضلة الطبيعة .

وعلى رغم تخيّل ماركس هذه الحقيقة تخيّلاً ضيقاً مشوّشاً فانه لم ينظر فيها الا من نافذة واحدة . لانه تال بدون غمغمة او جمجمة : الانسانية هي الاله .

وقد قال في هذا الشأن ايضاً : لو استقرأنا استقراء كافياً كيف كان بنيان المجتمعات على تعدادها وتنوّعها، ولو بحثنا عن كيفية نشوء مفاهيمنا العقلية التي يعجز فكر البشر عن ابتداعها مهما كان نوعها لرأيناها جميعاً وليدة العلاقات الاجتماعية وهي التي نظّمت بدورها العمل المادّي لان وجود الانسان كان قبل شعوره كما كان وجدانه وحياته الراهنة قبل ظهور الطبقات المتطورة التي بالاستطاعة الاستغناء عنها .

هذا بكلمة موجزة مجمل المفهوم الماركسي المادي او نقطة الدائرة للفلسفة الماركسية .

واننا لا نعدو جادة الصواب اذا قلنا ان هـذه الفلسفة ليست سراً من الاسرار بل جلّ ما يقال فيها انها «المادية التاريخية» لانها عللت التاريخ بالاستناد الى حاجات البشر المادية وعلاقاتهم بالمادة « الطبيعة » بصفة كونهم اجتماعيين على حين ان المادة ليست غير وسيلة من وسائل اشباع الرغائب او حاجز يقف في وجه المرء ليصدّه عن بلوغه ما تتوق اليه نفسه .

ومهما يكن من امر من المستحيل الاقتناع بتعريف للانسان على هـذه الشاكلة بحيث يصبح عقله بموجب هذا التعريف من غير مخلوقات الله ولا يبقى بينه وبين مبدعه الحقيقي صلة وينتفي الارتباط بين قواه العقلية ومفاهيمها ويغدو بدون هدف يصبو اليه ويكون في آنٍ واحد خالقاً العالم المادي المحيط به ووليده اي انه يكون خالقاً ومخلوقاً في الوقت نفسه .

ومن جملة اقوال هذا الفيلسوف : الانسان شغفٌ بالمستقبل ورغوب فيه لا بسبب فكرة الخلود او بسبب مثل اسمى وانما لكونه يماشي وجهة التطور في مجراها . وانكر ماركس الروابط التي تصل بين الارادة والقوة والواجبات التي لم يستطع كنت تجاهلها ، فجعل النواميس الادبية وليدة عوامل التطور العلمي فقط . وقال فيها انها عرضة للتبديل والتغيير ولا تصلح ان تكون مقياساً صحيحاً لافعال البشر مما يوهم ان الانسان مرغم على الاعتراف بوجود التناقض حتى بين البدهيات الاولية ليرى الصيف والشتاء في آنٍ واحد على سطح واحد وليقدس ما نبذه في امسه ويبارك ما لعنه في يومه .

ولقد توخى هذا العالم من وراء اقواله التي اتحفنا بمجرها وبيجرها ايجاد فلسفة جديدة تحتم في النهاية قيام مجتمع شيوعي خالٍ من الطبقات بسبب نضال طبقاته بعضها ضد بعض .

ولئن كان شعور الناس منبثقاً من اوضاعهم الاجتماعية الراهنة وناجماً عن مقدار تمركز امتهم الاقتصادي ووليد حياتهم العملية ألّا سبيل اتجاههم هذا ، فمن الحيف ان ينفي ماركس في تفسيره التاريخ تفسيراً مادياً ، وجود مثل اسمى للانسان فيظل في مجاعة روحية دائمة ، ومن الحيف ايضاً ان يجحد بكل مبدإٍ ليكوّن منهجاً فلسفياً لا محل فيه للارادة الانسانية بعد ان جعل الانسان اداة ليس الّا .

المعرفة

بالاستناد الى مبادئ الفلسفة الماركسية لا نرى سبيلاً يخوّلنا تفسير ماهية وجدان الانسان ، هذا الوجدان الذي فقه نواميس التطور ودأب فيها محللاً.

واذا ما تقيدنا بمبادئه ! فهل نستسيغ لنفسنا العذر ونتساءل كيف استطاع هو نفسه ان يستثمر مبلغ قواه النفسية التفكيرية .

والظاهر ان ماركس تفادياً عن ان يُسأل سؤالاً على هذه الشاكلة استدرك قائلاً : ان الاعمال التي جرت في الماضي نسيها المآتي التاريخية ليست الا عبارة عن كيفية تطور المفاهيم الروحية ، ومن المستحيل ان يفهم فيلسوف كيف جرت تماماً لانها لا تتصل اتصالاً مباشراً بشعوره وهي ليست معروفة الا عن طريقة الاستدلال التي لا تمكن البشر ابداً من تعيين ماهيتها بمنتهى الضبط والدقة.

ومن اقواله ايضاً : ان جميع التطورات التي تمت في الازمنة التاريخية قد اشترك فيها تفكير الانسان وشعوره .

ولئن اعتبر التطور التاريخي وحده صالحاً للدرس والبحث فمن المستحيل علينا بعد ان اشرك فيه تفكير الانسان وشعوره ان نسلم بوجود معرفة وضعية في المعنى التاريخي المعروف .

ولئن كان تفكير الانسان وشعوره يشتركان في كل تطور فهل يكونان غير حلقة من حلقات سلسلة التطور واطراد تقدمه ؟

ولئن اشترك تفكير الانسان وشعوره بكل تطور فهل تبقى قيمة للعلوم التي لن تكون الا ترى كامنة في خاطر التاريخ ؟ وهل تكون الطبيعة نفسها غير نتيجة من نتائج العلم ؟ وهل باستطاعتنا ان نعتبر وجودها راهناً اكثر من وجود الانسانية ؟ لانها كانت—وفق هذا الزعم—وليدة احدى الفترات التاريخية.

وعلى كل فلو كان تعريف الانسان على هذه الشاكلة صحيحاً ، لكان لا بدّ لمفاهيمه ووجدانه ان يتبدلا تبديلاً سريعاً جد السرعة اذ لا حدّ فاصل بين الانسان ومعرفته !

ولا مجال للشك في ان الفلسفة الماركسية تؤول حكماً الى انكار الخالق والجحود بحقيقة وجود الانسان ونبذ صحة مفاهيمه الراهنة واعتبارها وهما من

الاوهام وخرافة من الخرافات لتكون كالمذهب الفلسفي القائل : ان جميع الاجناس لم يكن لها وجود وانما كانت موجودة اسماؤها .

والواقع ان النظريات الماركسية قد انقلبت الى فلسفة الذرائع Pragmatisme التي وضع اركانها وليم جيمس ، بيد ان هذا الاخير نقد ذرائع ماركس نقداً حاداً ونعتها بانها خالية من المنطق وبعيدة عن التاريخ مستشهداً على صحة نقده بفلسفة الذرائع نفسها وبالمنطق والتاريخ معاً .

واصدق دليل على مبلغ تأثر ماركس بنظريات فورباخ هو ركوبه متن الشطط في بعض نقاطه الفلسفية كما يؤخذ مما علّقه على هذا الفيلسوف في تفسير قضاياه الاحدى عشرة . واليك مؤدى احداها :

من واجب العقل ان يقيم البرهان الاختباري على تفكيره ، اما معرفتنا انه اذا كان في مقدور الفكر ان يسلّم بوجود حقيقة غير حقيقة العقل المنبثق منه فليست من القضايا التاريخية ، فكل جدل او مشادة حول صحة فكرة او بطلانها لن يكونا الا عقيمين اذا لم يستندا الى التجربة والاختبار .

ويؤخذ من منطوق الفلسفة الماركسية : انه ليس ثمة من نظرية صحيحة لكل زمان ومكان وان ما كان صالحاً من النظريات في احدى الفترات التاريخية لن يكون صالحاً في غيرها .

ورأى ماركس ان الحقيقة التي لا يأتيها الباطل هي التحول الدائم في كل الشؤون عبر جميع العصور فدعا صراحة وبدون مواربة الى الاخذ بهذا الواقع التاريخي قائلاً : اذا كان ثمت بعض المثاليات المستندة الى الاختبار فقد اوجدها الشعور المحدود والقوّة لانه من نتائج التطور المحتومة وان لم يساهم فيه الا مساهمة ضئيلة .

اجل ان الشعور لعاجز عن خلق عالم جديد وان ادرك ان الضرورة القصوى تقضي بايجاده . ولئن اجهد ماركس نفسه لوضع فلسفته فلانه اراد ان يعرب عن تزوح الانسانية الى قيام مجتمع شيوعي تزوحاً لن تقوى اية عقبات كانت على الحيلولة دون بلوغ البشر هذه المرحلة في تطورهم التقدمي .

ولقد اعتقد هيكل ان فلسفته كانت وليدة الافتقار الشديد اليها ، ويعتقد معتقد التعاليم الماركسية ان الضرورة قضت بوجودهم في فترة معينة من فترات التطور التاريخية ، وانه من المستحيل عليهم تقديس مثل اسمى لا يقضي بالموت

على التفاوت الطبقي وليد الميول الاجتماعية ، وانه لم يستطع احد تعليل التطور الاجتماعي تعليلاً صحيحاً الا فلسفة ماركس لانها دلت على خطأ علم الاقتصاد السياسي «البورجوازي» واقامت البرهان على شوائبه وفساده لكونه من صنع طبقة محكوم عليها بالاندثار .

الانسان

باذا تستطيع التعاليم الماركسية ان تجيب على من يريد ان ينتهج طريقاً سوياً لحياته ؟

من المؤكد انها تجيبه ، انك رجل اجتماعي قد بلغت درجة معينة من درجات تطورك ، ولا تستطيع ان تكون على غير ما انت عليه ، لانك عاجز عن اختيار طبقة غير طبقتك ، فواجبك العمل ، وانك لتعمل وفق ما تفرضه عليك اوضاعك التاريخية التي تعيش فيها .

وبالاستناد الى منطق الامور لا يستطيع من استمسك بتعاليم الفلسفة الماركسية ان تكون له اهداف معينة سواء اكانت سياسية ام غير سياسية !

ولا نقول قولاً هراء بتأكيدنا ان المبادئ الماركسية لا تسمح لنا ان ننظر الى حياة الانسان كما هي لانها تفرض النتيجة محتومة ، ومجرد فرضها هذا يرغمنا على انكار الشخصية ! وهل يرجى ان تصل النظريات الماركسية الى غير هذه النتيجة ؟ وما الانسان في عرف صاحب كتاب رأس المال الا شخص اجتماعي لا يستطيع عملاً غير ما يوجبه عليه مجتمعه ! بحيث تزول شخصيته وتنسخ فرديته !

ولئن كان الانسان اجتماعياً بحكم الواقع فان اعماله لا تصدر الا عن مستقر بعيد جد البعد عن مجتمعه . انها لتنبثق من حريته وهما اساس اختياراته !

اجل ان جميع النظريات الفلسفية المركسية تنكر على الانسان حياته الثانية وتضرب عنها صفحاً تاماً « اذا كان الموت يمحو آثار الانسان بجملتها فالفزاء الوحيد الذي يخفف عن كاهله شدة وطأة المنية هو استمرار المجتمع » .

والخلاصة ان جميع المبادئ والنظريات الفلسفية والسياسية التي تحول دون ممارسة الانسان طريقه علينا ان نناهضها تلافياً لمنباتها غير المحمودة كما ينبغي

لنا الابتعاد عن الاخذ باي تعليم كان يمنع المرء عن التعرف الى الانسان الذي يتمتع بكل مواهبه وقواه .

الخلاصة

قد يخيل الى القارئ بعد اطلاعه على ما اشرنا اليه من مآخذ اخذها العلماء على الفلسفة الماركسية اننا نروم ان نتجاهل قيمتها والخدمات الجلى التي قدمتها للعلم فبخسها حقها .

ولا ندّعي ادعاء فارغاً في قولنا ان للفلسفة الماركسية محاسن كثيرة من الحيف ان نسدل عليها ستاراً ، فهي التي اهتمت لدرس ميزة الانسان التاريخية اهتماماً لم نشهده صريحاً كل الصراحة في نظريات كنت الفلسفية . اما قضية اصل الانسان ومنشئه فلا يسمح لنا المقام بالتوسع فيها لان مثل هذا الدرس لتضيق عن استيعاب بحثه كبريات المجلدات ومع ذلك لا يسعنا الا التأكيد ان حاجات الانسان الضرورية التي لم يستطع قط الاستغناء عنها : هي غير وحدة اصله الواهنة .

وليس في مقدورنا ان ننكر على ماركس صحة نظره في اشارته الى خطل المثالية وان حصر نظره هذا بناحية واحدة وهي حقيقة وجود الانسان وحقيقة حاجاته لكونها وضعين واهنين متناسياً ان البشر لا يحيون بخبزهم اليومي فقط وان كان من اول النعم التي يتسنون الحصول عليها .

والحافز الذي يحدونا الى تعريف الانسان تعريفاً ابتر « بانه شخص مفكر فقط » لنغفل منه النفس المكنونة في جسده ليس الا حافز الكبرياء .

ولئن استشعرنا ان في صدورنا محوراً نفسياً وفي قرارة كل منا مستقراً سرياً نلتقي فيه مع خالقنا فلن ننقص من قيمة فلسفة ماركس الواقعية ولن نقصّر في مشاطرته رأيه .

نعم ان الانسان مفتقر الى الاكل والشرب والنوم ، ومن واجبه ان يعمل لتأمين احتياجاته هذه لانها حقوقه الطبيعية . ولكن من اشد ما يبعث على الاسف هو ان نقصر تعريف مثله السامي على انه التنازع القائم بين افراده في سبيل لقمة خبزهم اليومي — وايم الحق ان تعريف مثل البشر السامي على هذه الشاكلة هو تعريف مجرم .

وان كانت النفس افضل من الجسد ، وان كانت غايتنا الاخيرة غاية روحية فمن واجبنا الا نهمل الحياة المادية ، لان الكنيسة نفسها القائلة بالبعث بعد الموت لم تمتهن الجسد وانما تؤكد اشتراكه بالسعادة مع النفس في الحياة الاخرى .

وجميع الاديان اشتراكية قد جعلت غاية الانسان الاخيرة السعادة ومع ذلك لم تهمل الالتفات الى الحياة الارضية . « ان لجسمك عليك حقاً » . . . اعمل لدنياك الابدية كانك تعيش ابداً ولاخرتك كانك تموت غداً » . . .

وقد يكون للناسك مل. الحق بان يرغب في حياة التقشف ويزهد بالامور الزائلة . اما الاثرياء واما كبار الساسة الذين يرغبون في استغلال غيرهم لتزيد رفاهيتهم وثرواتهم ! فما نستطيع ان نقول فيهم عندما ينظرون الى طلبات جمهرة العملة نظرة « جافة مادية » ويحاولون بكل ما اوتوا من ذريعة التغاضي عن حقوقهم الطبيعية التي وهبها لهم الله تعالى ؟

وفي مثل هذا المقام من يكون منهم اشد تكالباً على المادة؟ اهم البؤساء المساكين ؟ ام الاثرياء الكبار ؟

واذا ما قامت العقبات المادية الكؤود في وجه المملقين البؤساء وحجبت عن بصائرهم نور الحقائق السامية الالهية ! فهل يقع الذنب على عواتقهم فقط ؟

نعم من اول واجبات المجتمع ان يسهر على تأمين ولو ابسط درجات الحياة الراقية لاعضائه ، اما اذا كان الفقر شرطاً في بعض الظروف من شروط السعادة فانه على الغالب مجلبة لمعظم الشرور والمحن !

ولا يساورن القراء اننا انحزنا في بحثنا تارة ذات اليمين وطوراً ذات اليسار فناصرنا حيناً الماركسية على خصومها وآزرنا حيناً شمار الاثرياء ضد منافسيهم — فوايم الحق — وذلك في المعنى الفلسفي فقط — لان رائدنا الانصاف .

واستمساك النظريات الماركسية بالامور الوضعية الراهنة واغماضها العين على كل حقيقة اخرى يستوجب من التعاليم الادبية الاخلاقية ان تتلخص من هذه الحقائق القليلة قضية شاملة تنظر الى الانسان نظرة كاملة فلا تهمل الجسد لتهتم للنفس فقط ولا النفس لتنصرف الى الاهتمام للجسد وحده .

وما تعريف الدين المسيحي للانسان على هذه الشاكلة الا قاعدة فلسفية اركانها المحبة والعدل. ولئن كانت فلسفة ماركس قد دعت الى تقديس الانسانية

وتمجيدها وجعلتها الهاً فما دعوتها هذه الا دعوة مبتورة ملتوية لان صاحب كتاب راس المال وضع قناعاً كثيفاً على الناحية الروحية لكي لا يرى الا الجهة المادية وحدها .

وفي سبيل تلافي هذا الضلال الماركسي الشائن يقضي علينا الواجب بان نرفع الانسانية الى درجة ارقى من التي فيها .

وقصارى القول ان تمجيد ماركس الانسانية قد لفت النظر الى المعضلات الاجتماعية التي نجمت عن التقدم الصناعي ولا سيما بعد ان خطت الالة «التكنيك» خطوات جبارة الى الامام وسببت تفاوتاً بيناً بين اوضاع الطبقات تفاوتاً قد يؤدي بالبشر اذا لم يتلافوا مغباته — الى ويلات وكوارث لا قبل لهم باحتمالها .

ما هو المنطق المادي، وكيف عكس ماركس مثالية هيكل

لا بد لنا في سبيل ادراك نظرية كارل ماركس الفلسفية من ان نعرض الى الآراء التي اعتمدها واستنبط منها منهجه الخاص الذي اطلق عليه فيما بعد المنطق المادي الماركسي .

لقد كان انجلس ساعد ماركس الايمن صريحاً كل الصراحة في اجابته على السؤالين التاليين :

الاول : لماذا تدعى الماركسية بالاجتماعية العلمية ؟

الثاني : لماذا تفضي الماركسية حتماً و«اوتوماتيكياً» الى الشيوعية ؟

فقال : ان الاجتماعية العصرية هي انعكاس ظاهرتين اقتصاديتين على العقول :

الاولى نضال الطبقات المسيطر على المجتمع والثانية الفوضى السائدة على الانتاج. والماركسية التي توصلت الى الاتيان بالبرهان العلمي على قيام هذا النضال المحتم بين الطبقات هي علم ، اما سان سيمون وفوريه ووان فقد اخفقوا في ظنهم وان سعوا لوضع قواعد الانتاج الرأسمالي المؤدية حكماً الى ارجاع جميع وسائل الانتاج والملكية الخاصة الى الاشتراك .

بعد ان انعم كارل ماركس النظر في كتب الفلاسفة الانكليز وبخاصة

كتب باكون[1] وهوبس[2] ولوك[3] توصل الى تحديد فكرته الخاصة والى فهم المادية التاريخية ، فمطالعته اقوال باكون جعلته راسخ العقيدة ان علم الفيزياء القائم على المشاهدات الحسية هو العلم الوحيد واقنعته اقوال هوبس ان الحواس هي مصدر معارف الانسان جميعها من تصور وافكار : فهي اشباح العالم المادي المجرد من اشكاله المحسوسة تبعاً للظروف « ماركس في معتقده وبراهين لوك على صحة هذه النظرية في كتابه المسمى (Essai sur l'origine de l'entendement)

ولقد افسحت آراء هؤلاء الفلاسفة واقوالهم المجال امام كارل ماركس لتبني هذه النظرية وتسميتها بالمادية .

ومن اقواله بعد استناده الى هذه الآراء—اذا كانت المادة قد سبقت الروح فالروح قد اتخذت قالب هذه المادة لان الحركة الطبيعية تقضي على الروح بالتحريك والتاريخ الفكري خاضع لتاريخ العالم المادي ولهذا السبب كانت حاجة الجماعة المادية الى النضال في سبيل احراز حاجتها . اما جميع المفاهيم التي نظنها من ثمرة مخيلاتنا الخاصة فليست في الواقع الا انعكاس التأثير الاقتصادي فينا .

ومن اقواله ايضاً في هذا الصدد « ان التأثير المادي والتطورات والافكار والنماذج الروحية لغة الحياة الصحيحة تبدو جميعها صادرة عن احتمالات مادية ومرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالشعور المادي . . . »

ومما لا شك فيه ان اقوال ماركس هذه لعلى طرفي نقيض من الفلسفة الالمانية التي تود ان تبدأ من المكان الارفع لتصل الى الارض على حين ان ماركس ومفسري اقواله يرومون البدء باعمال البشر وبفعاليتهم الحيوية مما حدا بهم الى تفسير انتشار الانعكاسات والاهواء الفكرية ذات المثل العليا بهذه الفعالية الحيوية — اي بسعي الناس جميعهم لتحقيق امور معيشتهم لا اكثر ولا اقل . وقد قال ماركس في منتخباته كاليار (ص ٩٠) « ان الشعور لا يحدد الحياة بل الحياة هي التي تقرره وتضع حدوده » .

---

١) فيلسوف انكليزي واحد موجدي الطريقة الاختبارية .
٢) فيلسوف انكليزي من الماديين .
٣) فيلسوف انكليزي مشهور .

ومما جاء في اقواله ايضاً « اذا كانت الجماعة التي نعيش في وسطها هي التي تخلق مداركنا العقلية والاخلاقية والفنية والدينية والسياسية فجميع عثراتنا وخطيئاتنا الاجتماعية ناجمة عن نقائص هيئتنا الاجتماعية ومن المتناقضات التي تحز فؤادها ، فالشعور الشخصي وهم وخداع وشعورنا هو شعور جماعتنا وفي قلب هذه الجماعة لنا شعور آخر اولي هو شعور طبقتنا » .

هذه هي المادية التي تبنتها الماركسية واوغلت فيها حتى وصلت الى المادية التاريخية ولذلك قال انجلس « ان استيعاب التاريخ استيعاباً صحيحاً يقوم في البحث عن المبدإ الاساسي وعن الدافع الفعال الذي حدا البشر في جميع مآتيهم الى العمل على انشاء الهيئة الاجتماعية الاقتصادي والى تحويل وسائل الانتاج والتبادل والى تقسيم المجتمع البشري الى طبقات بعضها ينجر بعضاً » انجلس في كتابه الاجتماعية الوهمية والاجتماعية العلمية ص ٢٣٠)

واقتبس ماركس طريقة تعليل التاريخ عن هيكل الذي اعتمد المنطق في تحليل الامور التاريخية :

ويستند بحث هيكل عن الحقيقة الى استخدام القياس المنطقي الذي حدّده بقوله « في سبيل انتساق الفكر لا بدّ من حدود منطقية ثلاثة الاول قوة الادراك والثاني المقدرة على المقارنة بين النظرية والنظرية المناقضة لها والثالث استنباط النتيجة التي تتألف من هاتين النظريتين فالنتيجة ليست اذاً الا احتكاك مبدأين او قضيتين يستنبط منهما حد ثالث يتألف منهما » ومن اقواله في هذا الشأن « ان اعمال البشر مهما بلغت من التعقيد ومهما ظنها انها اعمال بديهية لانه يأتيها من دون شعور حتى يخالها لا تفتقر الى تفكير لا تخرج عن ان تكون خاضعة لنظر العقل الفلسفي فيها » « تبدو الحياة كلها كانها سائرة في طريق التطور الى الامام او كأنها نتيجة من نتائج الاعمال التي توالت فيها او لما ينعكس عنها من ردّات افعال سواء في بقاء هذه الحياة ام في زوالها وفي تقدمها وفي انحطاطها على الرغم من جميع الظاهرات الخاضعة لانظمة من الواجب تحديدها » .

هذه هي الطريق التي خطها هيكل سار فيها كارل ماركس بعد ان جرّد القضايا المنطقية من وجهاتها المثالية .

وقول ماركس الذي شجب به آراء هيكل ومؤداه « ان الفيلسوف البرليني